صورة الزهراء فاطمة عليها السلام

في قصيدة

" مدح فاطمة الزهراء" للشاعر محمد إقبال

المدرس الدكتور
بشار نديم أحمد الباججي
جامعة الموصل ـ الكلية التقنية الهندسية

صورة الزهراء فاطمة عليها السلام في قصيدة " مدح فاطمة الزهراء" للشاعر محمد إقبال (١)

المدرس الدكتور
بشار نديم أحمد الباججي
جامعة الموصل ـ الكلية التقنية الهندسية

المقدمة:ـ

يقوم العمل الأدبي على مجموعة من العناصر التي تتآلف لتشكل في النهاية عملاً أدبياً مكتملاً، وتعدُّ الصورة واحدة من هذه العناصر التي يوليها الشاعر الاهتمام والعناية، فهي التي تمنحه الفرصة ليعبِّر بها عما يدور بخاطره وما يدور حوله بشكل يمكنه من نقل تجربته الشعورية إلى المتلقي بأفضل الطرق.

وقد عُني الشعراء بصورهم منذ القدم وبرعوا في التشكيل الصوري لأشعارهم. وتُعدُّ الصورة الشعرية وسيلة من الوسائل التي تمنح خصوصية للمعنى فتكسبه القدرة على التأثير، وهذا التأثير يضفي نوعا من الخصوصية على هذا المعنى، ويرى عز الدين إسماعيل (أنَّ الصورة وسيلة الشاعر للتعبير عن شعوره، والشعور يظل مبهما في نفس الشاعر فلا يتضح له إلا بعد أنْ يتشكل في صورة، ولا بد أنْ يكون للشعراء قدرة فائقة على التصور تجعلهم قادرين على استكناه مشاعرهم واستجلائها)(٢) وتؤدي الصورة الشعرية دوراً هاما في العمل الشعري لأنها وثيقة الصلة بين نفسية الشاعر وتجاربه والمتلقي حين تعرض الانفعالات، لأنَّ النص الشعري يعتمد الايحاء والرمز اللذين يحققان انزياحا عن اللغة التقليدية نحو لغة شعرية تثير انفعالات المتلقي وتخلق فيه فورة عاطفية.

وتحليل الصورة وكشف جمالياتها طريقة يتوسل بها الناقد الحصيف

للكشف عن أصالة التجربة الشعرية، وطريقة المبدع في صياغة أعماله الفنية. ولما كانت الصورة بهذه الأهمية.

إنّ الصورة الشعرية ركن أساس من أركان العمل الأدبي، ووسيلة الأديب الأولى التي يستعين بها في صياغة تجربته الإبداعية، وأداة الناقد المثلى التي يتوسّل بها في الحكم على أصالة الأعمال الأدبية، وصدق التجربة الشعرية.

والذي عليه أكثر الدراسين، أنّ الصورة الشعرية، بوصفها مصطلحا نقدياً حديثاً، ظهرت في ظلّ المذهب الرومانسي، و مع نظرية (كولردج) في الخيال الإنساني والخيال الشعري؛ لكنْ هل يعني هذا أنّ نقدنا العربي القديم كان خُلواً من مباحثها؟، أو أنّ نقدنا العربي القديم – وإنْ جهل مفهوم الصورة الفنية – لم يعرف مباحث الخيال التي لها صلة مباشرة بهذا المصطلح الذي نزعم أنّه حديث النشأة ؟

لا نجد المصطلح بهذه الصياغة الحديثة في التراث البلاغي والنّقدي عند العرب، لكنَّ المشاكل والقضايا التي يثيرها المصطلح الحديث ويطرحها، موجودة في التراث، وإنْ اختلفت طريقة العرض والتناول، أو تميّزت جوانب التركيز ودرجات الاهتمام. إنَّ معنى الصورة قريب ممّا تصوّره الجاحظ قديما عندما ذهب إلى أنَّ "الشعر صناعة وضرب من النسج وجنس من التصوير"[٣]، فمصطلح التصوير يحيل هنا إلى ثلاثة مبادئ: أولاها:أنَّ للشعر منهج خاصّ في تحديد المعاني والأفكار وصياغتها، وتكمن وظيفة هذا المنهج في إثارة الانفعال واستمالة المتلقّي، وثانيها: أنَّ قوام أسلوب الشعر في الصياغة – غالبا – هو عرض المعنى بطريقة حسّية، وهذا المبدأ يعادله في النقد الحديث مصطلح (التجسيم)، أما ثالثها: أنَّ هذا العرض الحسّي للمعنى الشعري يقرّبه من مفهوم الرسم.

ومن أجل أنْ تكون الصورة الشعرية ناضجة لا بدَّ أن يكون الشاعر واسع

الخيال فالخيال هو الذي يمنح للصورة شعريتها، ولا بدَّ من توفر خزين من التجارب الحياتية والعاطفية للشاعر يستمد منه، فهي نتاج ملكة الخيال، وديناميةالخيال لا تعني محاكاة العالم الخارجي، وإنّما تعني الابتكار والإبداع، وإبراز علاقاتٍ جديدة بين عناصر متضادّة، أو متنافرة، أو متباعدة، وعلى هذا الأساس لا يمكننا قصر الصورة الفنية في الأنماط البصرية فقط، بل إنها تتجاوز هذا إلى إثارة صور، لها صلة بكلِّ الإحساسات الممكنة التي يتكوّن منها الإدراك الإنساني ذاته، ومما لا شك فيه أنَّ الخيال هو التربة الخصبة لكل إبداع شعري مدهش.

وقد أقرَّ علماء النّفس المحدثون هذا الأمر، إذ قدّموا للدارسين والباحثين أنماطا متعدّدة من الصور في الشعر.

إنَّ اللغة والإيقاع ليسا كافيين لإنتاج شعر جيد، وإنما يجب تضفيرهما بالصور الشعرية الطازجة لكي يرتقي الإفراز الإبداعي إلى لغة الشعر الحقيقية، وسوف ينصب اهتمامنا في هذا المبحث حول الصورة الشعرية وخصوصيتها في قصيدة محمد إقبال في مدح الزهراء فاطمة تاركين اللغة والإيقاع لمناطق بحثية أخرى.

يُبتَدأ النص بالإشادة بالنسب الطاهر للزهراء فاطمة، وهو أمر يستحق الذكر فالقضية ليست نسب دم فقط بل الأمر يتعدى ذلك إلى ما تلقته الزهراء من أنوار نبوية،فقد كانت علاقتها متميزة وفريدة مع والديها وبالخصوص علاقتها المتميزة بوالدها سيد الكائنات الرسول محمد صلى الله عليه وآله وبعد وفاة والدتها السيدة خديجة حيث صارت له أما رحيمة على الرغم من صغر سنها، تحن عليه وتداويه عندما يتعرض للأذى من قبل أعداء الرسالة، وكانت مصدر الفرح والسعادة والبهجة لوالدها الذي يخصص لها الوقت على الرغم من انشغاله بمسؤولية الرسالة، وإدارة أوضاع الأمة، حيث كان يستأنس برؤيتها،

ويمر على منزلها بشكل يومي رافعا صوته قائلا السلام عليكم يا آل البيت، والاطمئنان عليها، وكانت الزهراء هي أول شخصية يراها عند دخوله المدينة وآخر شخصية يودعها.

ويلجأ الشاعر إلى إجراء مقاربة بين نسب الزهراء ونسب مريم عليها السلام :

نسب المسيح بني لمريم مسيرة ... بقيت على طول المدى ذكراها

والمجد يشرق من ثلاث مطالع ... في مهد فاطمة فما أعلاها

هي بنت من؟ هي زوج من؟ هي أم من؟ ... من ذا يداني في الفخار أباها

هي ومضة من نور عين المصطفى ... هادي الشعوب إذا تروم هداها

هو رحمة للعالمين وكعبة الـ ... ـمال في الدنيا وفي اخراها[٤]

إنَّ الشاعر في خلقه لصورة التقابل بين الزهراء ومريم (يعيد تشكيل الزمان والمكان، وفق حالته الشعورية الخاصة التي يمكن للمتلقي أنْ يستشعرها من خلال الأثر النفسي الذي لا يمكن للشاعر أنْ يخفيه وهو يشكل صورته)[٥] وهذه الصورة تساعد في كشف الحقيقة من خلال الإيحاء الذي تقدمه.

والعلاقة بين فاطمة وأبيها المصطفى تُفهم من خلال قراءتنا لما ورد عن النبي صلى الله عليه وآله أنه كان يقوم لفاطمة حين تدخل عليه ويقبلها في رأسها ذكر النووي حديثا روته أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها يبين فضلها ومكانتها عند النبي صلى الله عليه وآله (ما رأيت أحداً أشبه سمتاً ودَلاً وهدياً من فاطمة بنت رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم ورضي الله عنها، قالت: وكانت إذا دخلت على النبي صلى الله عليه وآله قام إليها فقبلها وأجلسها في مجلسه، وكان النبي إذا دخل عليها قامت من مجلسها فقبلته وأجلسته في مجلسها)[٦]، وحين تزوجت من (علي بن أبي طالب رضي الله عنه) وسكنت في بيت بعيد كان النبي صلى الله عليه وآله يزورها حبا لها واطمئنانا عليها،

فهي الشخصية الأحب إلى قلبه.

وإذا أوغلنا في شعر الشاعر الكبير محمد إقبال نجد أنَّ صُوره الشعرية تمزج بين البساطة والتكثيف، وبين الإطلاق والتحديد في توافق رائع جعل من شعره الملاذ الجميل لجمهور عريض من عشاق الشعر.

من أيقظ الفطر النيام بروحه وكأنه بعد البلى أحياها

وأعاد تاريخ الحياة جديدة مثل العرائس في جديد حلاها

يسير محمد إقبال ليقدمَ الزهراء في فخر جديد، يذكر زواجها بسيدنا علي، إنه الفخر الذي ما بعده فخر، وقصة زواج السيدة الزهراء من أعجب القصص، حيث تستقبل كل فتاة زواجها بمظاهر البهرجة والترف لكنَّ فاطمة الزهراء(دخلت بيت زوجها بخميلة ووسادة أدَم حشوها ليف ورحائين وسقاتين وجرتين وشيء من العطر والطيب) [٧] .

ولزوج فاطمة بسورة هل أتى تاج يفوق الشمس عند ضحاها

أسد بحصن الله يرمى المشكلا ت بصقيل يمحو سطور دجاها

إيوانه كوخ وكنز وسيف غدا بيمينه تياها

في هذا البيت صورة تشكلت من التشبيه (والعلاقةَ بين طرَفي التشبيهِ تُمَيِّزُ الصورةَ التشبيهيَّةَ ، لكنَّ فَهمَها وتأويلَها موصولٌ بالمشبهِ بهِ الذي يمثِّلُ القوةَ التصويريَّةَ الفاعلةَ في الصورةِ والأساسَ المعوَّلَ عليهِ في كشفِها واستنطاقِها؛ لأنَّهُ "صورةٌ من الصورِ احتفظتْ بها النَّفسُ فإذا ما أثارها شيء استجابتْ، ووثبتْ إلى اللسانِ)[٨] والشاعر في استعماله الصورة للتعبير عن تجربته وإيصالها إلى الناس، إنما يعمد إلى تجسيد ما هو تجريدي، وإعطائه شكلاً حسياً تجسَّد، فيشبه بيت الرسول المتواضع البسيط بالإيوان، ويشبه ثروته بالسيف

الذي يحمله دفاعا عن عقيدته.

نلاحظ أنَّ الأمر الذي جعله إقبال موضعا للثناء على الزهراء فاطمة وزوجها أمير المؤمنين علي بن أبي طالب زهدهما، وهو أمر لا يتحقق إلا لأصحاب المبادئ اللذين تصغر الدنيا في أعينهم ولا يجدون سعادتهم إلا في تحقيق العدالة الاجتماعية لجميع الناس، وهو أمر سعى من أجله جيل المؤمنين الذين تربوا في كنف الرسول المصطفى، وزهد الزهراء ينبع أيضاً من شدة التحامها بسيرة أبيها العطرة الذي كان يمضي الأيام والليالي الطوال وقد شدَّ على بطنه الحجر من شدة جوعه.

وتتابع الصور في هذه الأبيات، وتحقق الصورة مفارقة تمنح الأبيات شعريتها حين يقارن بين الإيوان والكوخ، والصورة على غناها وعمق فاعليتها تخدم المعنى الذي يريد الشاعر إيصاله إلى المتلقي (إنها لا تشغل الانتباه بذاتها إلا لأنها تريد أنْ تلفت انتباهنا إلى المعنى الذي تعرضه، وتفجؤنا في تقديمه)[٩] ثم ينتقل الشاعر إلى مزية أخرى للزهراء في تتابع سريع لخصالها الرائعة، ،إنها أم للحسن والحسين سيدا شباب أهل الجنة، يبلغ التعبير الانفعالي للشاعر مداه، حين يتم الربط الواجب بين أفراد عائلة سارت على الخطى النبوية الشريفة كما في قوله:

في روض فاطمة نما غصنان لم ... ينجبهما في النيرات سواها

فأمير قافلة الجهاد وقطب دا ... ئرة الوئام والاتحاد ابناها

حسن الذي صان الجماعة بعدما ... أمسى تفرقها يحل عراها

ترك الخلافة ثم أصبح في الدنيا ... ر أمام ألفتها وحسن علاها

وحسين في الأحرار والأبرار ما ... أزكى شمائله وما أنداها

الزهراء الأم الرؤوم والمربية الفاضلة صاحبة القلب الكبير الذي يفيض حبا ورحمة على العالمين، فكيف بأقرب الناس إليها أفراد أسرتها، فقدمتْ أفضل نموذج في العلاقة الأسرية والتربوية، وهذا طبيعي لأنها ابنة مربي الأمة والبشرية، وأخذت منه الهدي والسمت النبوي الذي ارتقى بها حتى صارت مثالاً في العفة والزهد والعلم والورع ، فكانت هي كما كان والدها قدوة وأسوة ومدرسة ومنبعا للعلوم لأفراد أسرتها، ولتقدمَ للعالم أفضل تجربة في فن العلاقة الأسرية والتربوية، وصناعة أفراد يملكون القدرة على البناء ومواجهة التحديات، إنَّ كون الصورة تتمتع بمثل هذه الأهمية في الشعر، وكونها جوهر الإبداع الشعري، يعني بالتالي أنّ أيّة دراسة للشاعر لا يمكنها أنْ تكون كاملّة إلا إذا قامت على أساس دراسة الصورة الشعرية عنده.

وقد تنبّه جاكبسون في عصرنا الحاضر لهذا الأمر، فأشار إلى "دور الصورة الشعرية في عملية الخلق الفني"، وبيّن لنا مكانتها من النص الشعري، "فهي عنصر حيوي في النص الشعري"؛ لهذا "يجب أنْ تُحلَّل في إطاره".

وقد أولى هذا الناقد "الأهمية الكبرى للسياق والتجربة الشعرية الكلّية في تحليل الصورة الشعرية، وفَهْم أبعادها، فعلاقتها بالسياق والموقف الشعري ذات تأثير في فهم النص وبنيته الكلية، كما أنَّ لعلاقات الصور بعضها ببعض أثراً في هذه البنية". ومما دفع جاكبسون إلى إعطاء الصورة في النص الشعري هذه الأهمية، كونها "تحمل إلينا رؤية الكاتب للعالم، وهي عنده واسطة للتعبير عن المعنى، تخرج باللغة من مستوى إلى آخر، وتصبّ فيها مواقفه النفسية والفنية والاجتماعية. لذلك كانت دراسة هذه الصورة أمراً هاماً في التحليل البنيوي للنص"[١٠].

إنَّ التشكل الصوري للنص أساسي ومحوري فيه، والملاحظ تنوع مرجعيات الصورة فيه فهناك مرجعيات تاريخية حاضرة استدعاها الشاعر من وحي تعلقه بتاريخ آل البيت الكرام وسيرتهم العطرة:

وتعلمـــوا حريـــة الإيمـــان مـــن صـــبر الحســـين وقـــد أجـــاب نـــداها

فتعلمـــوا ري الـــيقين مـــن الحسيـــ ن إذا الحـــوادث أظلمـــت بـــدجاها

الأمهـــات يلـــدن للشـــمس الضـــيا ء وللجـــواهر حســـنها وصـــفاها

وشعر إقبال فيه الكثير من اللمحات التاريخية (إنَّ دراسة شعر إقبال تزودنا بمعلومات وحقائق جديدة إذا تفحصنا في غضون دراساته التاريخية، ورأينا الى أي مدى تستطيع هذه الومضات التاريخية في شعره الحي أنْ تسعف رواد مناهل العلم والبحث الذين يريدون الاستفادة من التجارب الحضارية التاريخية في النص الشعري يمكن أنْ يشكل عقبة أمام الانطلاق في شعرية النص، لأنَّ النص الشعري بطبيعته ينحو نحو الانزياح عن لغة الكتابة الاعتيادية وهذا يحقق للنص اتساعا في المعنى، ولكنَّ إقبال اقتحم التاريخ ليُشكل من سيرة الزهراء قصيدة، لأنَّ الزهراء ليست شخصيةً اعتيادية مألوفة، ولا هي شخصية تقليدية، إنها شخصية تحتل العمق الروحي والفكري الذي مكَّنها من التأثير في حركة التاريخ.

إنَّ علينا التوسع في قراءة النص الشعري لإقبال في ضوء النظريات النقدية الحديثة وأعتقد أنَّ الباحث سيرى في نظرته إلى الزهراء أبعادا تربوية وتوجيهية قيمة، إنَّ إقبال لم يستدعِ التاريخ ليقع في أسره إنه يجعل التاريخ في رأس المسيرة نحو الإحياء الشامل لمسيرة الأمة الإسلامية التي أُصيبت بالوهن، وهو في دعوته الإحيائية جعلت الباحثين في شعره يقولون: إنَّ (الثورة والتمرد يحتلان مركز تفكير إقبال)[١١].

صورة السيدة المثالية:

واشتهر عن الرسول صلى الله عليه وآله قوله: (كمُلَ من الرجال كثير، ولَمْ يَكْمُلْ منَ النِّسَاء إلَّا أَرْبَعٌ: فَاطِمَةُ بِنْتُ مُحَمَّدٍ، وَخَدِيجَةُ بِنْتُ خُوَيْلِدٍ، وَآسْيَةُ امْرَأَةُ فِرْعَوْنَ، وَمَرْيَمُ ابْنَةُ عِمْرَانَ ".)[١٢] فالرسول قدَّم فقاطمة للمجتمع الإسلامي على أنها امرأة كاملة فما وجه الكمال في شخصيتها التي رصدها شاعر إسلامي لديه القدرة على استكشاف مواطن الجمال والقوة في الشخصية الإنسانية؟.

إنَّ المرأة وفق المنظور الإسلامي تكون في شخصيتها وفي هويتها شخصية مستقلة وجسدت النصوص هذه الاستقلالية وعبّرت عنها. وانطلاقاً من هذا الفهم لشخصية المرأة وفق المنظور الإسلامي يمكن أنْ نقول بأنَّ المرأة تتحمل المسؤوليات العامة في المجتمع الإنساني، كما يتحملها الرجل على حد سواء. وقد يختلف الحال في تقسيم الأدوار، فيكون لشخص ما دور ما ولشخص آخر دور آخر وهكذا، لكن من حيث الأساس في حركة المجتمع تكون الواجبات واجبات مشتركة.

إنَّ إقبال يرى أنَّ فاطمة قدوة، والقدوة لا تكون إلا لمن تهيَّأت لديه قدرات نفسية وعقلية وسيرة صالحة للاقتداء، وقد قدَّم إقبال صورة لفاطمة مستوحاة من تأثيرها في بيئتها الإسلامية،فالبيئة (تمثل مصدراً رئيسا لدى المبدع، فعبرها يكوّن صوره وأخيلته التي تعتمد بالكلية على التأثر الفعلي بما هو حوله، وبما يتلقفه أو قد تلقفه عقلهن ليتفاعل الواقع مع ما هو عقلي، فيمتزجان ليكونان صورة بديعة ترجمتا كلمات خاصة عبرت عن أحاسيس خاصة، ولتميز هذا المبدع عن ذلك) [١٣] يقول:

مـــا ســـيرة الأبنـــاء إلا الأمهـــا	ت فهـم إذا بلغـوا الرقـى صـداها
هـــي أســـوة للأمهـــات وقـــدوة	يترســـم القمـــر المـــنير خطاهـــا

وصورة أخرى يقدمها إقبال من وحي حبه وتعلقه بالزهراء،هي تعلقها بالمجتمع الإسلامي، وخدمته بكل ما أوتيت على الرغم من شظف العيش وحياة الزهد التي اتسمت بها حياتها، ويمكننا القول أنَّ الزهراء كانت في بيت الزوجية قدوة لمن جاء بعدها من الزاهدات العابدات اللواتي امتلأت كتب الرقائق والزهد بذكرهن، يقول:

لما شكا المحتاج خلف رحابها ... رَقَتْ لتلك النفسي في شكواها

جادت لتنقذه برهن خمارها ... يا سحب أين نداك من جدواها

وتتابع الصور بشكل متدفق في النص وهذه ميزة واضحة في النص حتى أنَّ هذه الصور هي التي شكلت معظم البناء الفني للنص، وهو يتواصل بتشبيه الزهراء في تقديم الزهراء بالتقية العابدة الزاهدة التي هجرت الدنيا وارتضت العيش الكفاف، وهي في ذلك تقتبس من هدي النبوة وتسير على خطى أبيها المصطفى وتقتدي أيضا بسيرة زوجها الذي كانت سيرته شكلا من أشكال التجسيد الفعلي للتعاليم الإسلامية يقول:

نور تهاب النار قدس جلاله ... ومنى الكواكب أن تنالَ ضياها

جعلت من الصبر الجميل غذاءها ... ورأت رضا الزوج الكريم رضاها

فمها يردد أي ربك بينما ... يدها تدير على الشعير رحاها

بلَّتْ وسادتها لآلئ دمعها ... من طولِ خشيتها ومن تقواها

جبريل نحو العرش يرفع دمعها ... كالطل يروي في الجنان رباها

إنَّ القرآن الكريم والسنة النبوية الشريفة تؤكدان أنَّ المرأة من حيث هويتها الإنسانية تحظى وتتصف بهوية كاملة في ولا يوجد فيها أي جانب من جوانب

النقص في هذه الهوية يعيق حركتها الإنسانية التكاملية، وسيرة الزهراء فاطمة بما تحمله من قيم إسلامية وإنسانية راقية تجسيد حي لها، لقد وقفت فاطمة مع أبيها في محنة دعوته، وتحملت معه وهي طفلة صغيرة أهوالاً لا تحتملها الجبال الراسيات، كانت تشاهد كفار مكة وهم يلقون القاذورات على رأس المصطفى الشريف مستهزئين به وبدعوته، فينتابها البكاء وما أصعب أن ترى البنت أباها بهذا الموقف فتتجه إليه لتزيح ما ألقى الكفار على رأسه الشريف.

كانت الزهراء مشاركة فعالة في الدعوة منذ أن وعت الحياة وتعلمت أنْ تتحمل كلَّ أشكال الأذى في سبيل هذه الدعوة وما استكانت بل بقيت ثابتة رابطة الجأش.

وعندما استقرت الأمور للمسلمين في المدينة وصار الرسول المصطفى الحاكم الفعلي للمدينة وصار زوجها علي بن أبي طالب قائداً لسرايا المسلمين ونائبا للرسول أحيانا أُخر على المدينة، لم تُنسِ هذه المناصب فاطمة حقيقة الدعوة وعاشت زاهدة قانعة بالقليل من القوت، وما عرف عنها أبدا أية قصة تشير إلى استغلال السلطة أو النفوذ كما يقال في عصرنا الحاضر.

لغة النص:

إنَّ نسيج المعاني عند إقبال ليِّن الملمس، مألوف الألوان، يرسم الأفكار الواضحة في صورة وألفاظ وتراكيب تتفق وطبيعة هذه الأفكار،إنَّ معاني النص عميقة الغور جاءت بصياغة موائمة لها، بمعنى إنها تخلو من الجزالة والفخامة ولكنها صياغة عذبة رشيقة تعتمد في تأثيرها على مجموع النص لا على جزئياته فقط، وصوره في النص تُكمل بعضها بعضا ومن مجموع الصور التي صاغها تتشكل صورة كلية للزهراء فاطمة.

إنَّ البساطة هي السمة الغالبة على النص، بساطة المفردات، وبساطة

التراكيب، وبساطة الصور، مع رقة الألفاظ وعذوبتها، وقد أكثر من الاستفهام في قوله:

هي بنت من؟ هي زوج من؟ هي أم من؟ من ذا يداني في الفخار أباها

وكأنه في حالة حوار دائم مع نفسه ومع الآخرين للإجابة عن سؤال يدور في النص (ما هو وجه العظمة في شخصية الزهراء؟) وكأنه في تعدد الاستفهام يقول لنا إنَّ العظمة ليست محصورة في جانب واحد، وجاءت بعض أبيات القصيدة مدورة لتعطي دلالة على الاستمرارية في تشكل المعنى أو المعاني، إنها أوجه للعظمة مستمرة خالدة بخلود ذكرها وخلود تأثيرها في محبيها.

وقد تمكن الشاعر من صياغة القصيدة بهذه السلاسة وبهذا الرقة والنعومة لتناسب رقة الحديث عن امرأة، وكأنه يحاول أيضا أن يُعزيها بشظف العيش وشدة معاناتها منذ كانت طفلة وقفت مع أبيها المصطفى صلى الله عليه وآله بهذه الألفاظ الرقيقة النابعة من قلب شاعر محب يميل كثيرا إلى حب المتصوفة ووجدهم، ولا غرابة في ذلك فهو في معظم شعره ينطلق من رؤى صوفية متأتية من تواصله مع الأدب والفكر الصوفي لاسيَّما جلال الدين الرومي.

ونلاحظ القدرة الفائقة لإقبال في اختيار الألفاظ المناسبة وبناء العبارة المسبوكة مما أدى إلى توليد الموسيقى الداخلية في النص المتفاعلة مع الموسيقى الخارجية. وقدرته الفائقة على توليد الموسيقى تنبع من طبيعته الشاعرة المرهفة التي عشقت الجمال وتربّت في أكنافه،وعلى هذا الأساس تندمج الموسيقى الداخلية مع الموسيقى الخارجية للنص بالأبعاد الإيحائية داخل النص.

إنَّ الدلالة الإيحائية لصوره المتكررة تشحن فضاءات النص بثراء وجداني وحرارة عاطفية محدثة تحولا آخر للدلالة حين يصير معادلاً رمزيا للتضحية.

إنَّ النص يستند إلى تتابع مفرط للأفعال بانتقالة سريعة من الماضي إلى المضارع والأمر بحركة داخلية سريعة التغير تَعبر الإحالة الى سلسلة من الإحالات التي تُسهم في تعميق دلالات النص، ومحدثة هزات نفسية متتابعة عبر سلسلة الانتقالات التي تحدث أثرها في المتلقي، فثمة ذات يخاطبها الشاعر هي ذات الزهراء وينقل عبر الحديث عنها صوتها إلى الأمة عبر طرح الأسئلة والإجابة عنها.

الحضور الحاشد للأفعال وتراكماتها تشكل ملمحا أسلوبياً يؤدي دوره الدلالي بما يصاحب ذلك من انتقالات تُجسد الحركة التي يريد إقبال للأمة أنْ تنهض بها فهو لم يبق مأسوراً بالماضي بل تنوعت انتقالاته الزمانية إلى الحاضر والمستقبل فـ (الأفعال مادة لغوية ضرورية في تكوين الجمل والأساليب وهي أحداث تتضمن أزمنة مختلفة ـ في الأعم الأغلب ـ تناسب المعاني التي يقصدها المتكلم عند التعبير عن الماضي أو الحال، أو الاستقبال الذي تتضح وظيفته في السياق)[١٤] .

هوامش البحث

(١) وُلد ببلدة سيالكوت بإقليم البنجاب سنة ١٢٨٩ هـ - ١٨٧٣م.،نشأ في أسرة متوسطة الحال ملتزمة بالدين. حفظ إقبال القرآن وتلقى تعليمه الابتدائي في بلدته، والتحق بمدرسة البعثة الأسكتلندية للدراسة الثانوية، ودرس في هذه المدرسة اللغتين العربية والفارسية. التحق بجامعة لاهور، واتصل بالمستشرق الإنجليزي توماس أرنولد. سافر إلى لندن وعمل بها فترة سنة "١٣٢٣هـ - ١٩٠٥م"، ثم سافر إلى ألمانيا وحصل على درجة الدكتوراه "من جامعة ميونخ". وبعد عودته إلى بلاده اشتغل بالسياسة والفلسفة، وانتخب عضواً بالمجلس التشريعي بالنبجاب، وأخيراً رئيساً لحزب مسلمي الهند. يُعد محمد إقبال أول من نادى بضرورة انفصال المسلمين في الهند عن الهندوس، وتأسيس دولة خاصة بهم. دعا محمد إقبال إلى تجديد الفكر الديني وفتح باب الاجتهاد، وتقدير الذات الإنسانية ومحاربة التصوف السلبي الاتكالي. ترك محمد إقبال تراثاً

فكريًا وأدبيًا، تُرجم معظمة إلى اللغة العربية. تُوفي محمد إقبال في "٢٠ من صفر ١٣٥٧ هـ = ٢١ من إبريل ١٩٣٨م".

أهم مؤلفاته: ترك تراثاً أدبياً وفلسفياً احتل به مكانة مرموقة بين كبار الشعراء والفلاسفة في النصف الأول من القرن العشرين، ومن أهم مؤلفاته بالإنجليزية: تطور الفكر الفلسفي في إيران، وقد ترجمه إلى العربية حسن الشافعي ومحمد السعيد جمال الدين، ونشر بالقاهرة سنة ١٩٨٩م. تجديد الفكر الديني في الإسلام، وترجمه عباس العقاد إلى العربي ومن أشهر دواوينه: - ديوان أسرار إثبات الذات،- ديوان رموز نفي الذات، وديوان: رسالة المشرق، ديوان ضرب الكليم، (ينظر: مقدمة ديوان محمد اقبال/اعداد سيد عبد الماجد الغوري، دار ابن كثير، دمشق- بيروت،،٢٠٠٥)،

(٢) الشعر العربي المعاصر قضاياه وظواهره الفنية والمعنوية، دار الكتاب العربي، القاهر، ١٩٦٧، ١٣٦

(٣) البيان والتبيين،أبو عثمان عمرو بن بحر الجاحظ، تحقيق: عبد السلام هارون، القاهرة، ١٢٠/٣.

(٤) الديوان،٢٢٧/١.

(٥) الشعر العربي المعاصر قضاياه وظواهره الفنية والمعنوية، ١٦٣.

(٦) الترخيص بالقيام لذوي الفضل والمزية من أهل الإسلام، شيخ الإسلام الإمام محيي الدين أبي زكريا النووي، تحقيقك أحمد راتب حمّوش، دار الفكر،١٤٠٢هـ،١٩٨٢م ٤٢، قال النووي عن الحديث (هذا حديث صحيح رواه الأئمة أعني أبا داؤود والترمذي والنسائي بأسانيدهم).

(٧) نساء خالدات في ظل الإسلام، د. نوال نوري عزت، مطبعة الانتصار، الموصل،٢٠١٠، ٨٥.

(٨) التصوير البياني (دراسة تحليلية لمسائل البيان): د. محمد أبو موسى، دار التضامن، القاهرة، ١٩٨٠م، ص٣٣.

(٩) الصورة الفنية في التراث النقدي والبلاغي عند العرب، جابر عصفور، ٣٢٨.

(١٠) طريقة جاكبسون في دراسة النص الشعري لعبد الفتاح المصري، مجلة الموقف الأدبي، العدد ١٢٢، حزيران، ١٩٨١، ٣٨ .

(٣) ديوان محمد إقبال،مقدمة الدارس،٤٤/١

(١١) ديوان محمد اقبال، ٧٣/١

(١٢) الأربعين في مناقب أمهات المؤمنين إمام الحافظ أبي القاسم علي بن الحسن بن هبة الله الشافعي المعروف بابن عساكر، تحقيق: محمد مطيع الحافظ، دار الفكر – دمشق، الطبعة الأولى، ١٤٠٦،٨٥.

(١٣) عامريات ابن دراج القسطلي، وسام قباني، وزارة الثقافة،دمشق، الهيئة العامة للكتاب، د.ت، ٤٨٤.

(١٤) الدلالة الزمنية في الجملة العربية، د. علي الجابري، مطبعة الجامعة بغداد، ١٩٩٨، ٤٥.

قائمة المصادر والمراجع

١- الأربعين في مناقب أمهات المؤمنين إمام الحافظ أبي القاسم علي بن الحسن بن هبة الله الشافعي المعروف بابن عساكر، تحقيق: محمد مطيع الحافظ ، دار الفكر – دمشق، الطبعة الأولى، ١٤٠٦

٢- البيان والتبيين، أبو عثمان عمرو بن بحر الجاحظ، تحقيق: عبد السلام هارون،القاهرة، ن.ت.

٣- الترخيص بالقيام لذوي الفضل والمزية من أهل الإسلام، شيخ الإسلام الإمام محيي الدين أبي زكريا النووي، تحقيقك أحمد راتب حمّوش، دار الفكر،١٤٠٢هـ،١٩٨٢م

٤- التصوير البياني(دراسة تحليلية لمسائل البيان):د. محمد أبو موسى،دار التضامن، القاهرة، ١٩٨٠م.

٥- الدلالة الزمنية في الجملة العربية، د. علي الجابري،مطبعة الجامعة بغداد، ١٩٩٨.

٦- ديوان محمد إقبال إعداد سيد عبد الماجد الغوري، دار ابن كثير، دمشق- بيروت، ١٤٢٦هـ، ٢٠٠٥.

٧- الشعر العربي المعاصر قضاياه وظواهره الفنية والمعنوية،دار الكتاب العربي، القاهر، ١٩٦٧

٨- الصورة الفنية في التراث النقدي والبلاغي عند العرب، جابر عصفور،

٩- صحيح الامام البخاري، الجامع الصحيح المختصر،محمد بن إسماعيل أبو عبدالله البخاري دار ابن كثير، اليمامة – بيروت لطبعة الثالثة، ١٤٠٧ – ١٩٨٧تحقيق: د. مصطفى ديب البغا أستاذ الحديث وعلومه في كلية الشريعة - جامعة دمشق

١٠- عامريات ابن دراج القسطلي، وسام قباني، وزارة الثقافة،دمشق، الهيئة العامة للكتاب، ٢٠١٠م.

١١- علل الشرائع، جعفر محمد بن علي بن الحسين بن موسى ابن بابويه القمي المشهور بـ الصدوق، مطبعة النجف، د. ت

١٢- طريقة جاكبسون في دراسة النص الشعري لعبد الفتاح المصري، مجلة الموقف الأدبي، العدد ١٢٢، حزيران، ١٩٨١،.٣٨، نساء خالدات في ظل الإسلام، د. نوال نوري عزت، مطبعة الانتصار، الموصل،٢٠١٠ .